مجلة كليّة
الدعوة الإسلامية
عشر
مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة تصدر سنويًا
1424 من ميلاد الرسول ﷺ 1995 أفرنجي

إختتام النّبوّة

ظاهرة الشّعراء الكُتّاب في ليبيا

مالم يُذع من المصطلحات النحويّة

مجمل لتاريخ الكنيسة

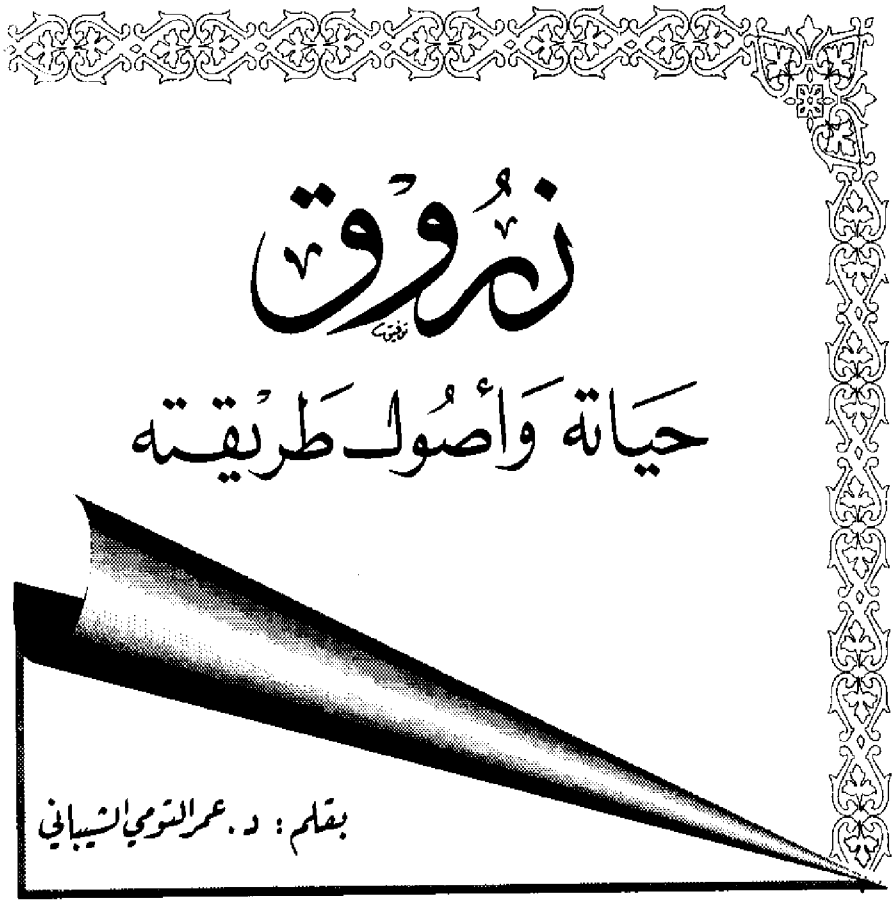

مقدمة:

في بحث سابق تحدثنا عن بعض جوانب النزعة الصوفية في المجتمع العربي الإسلامي بصورة عامة. وكان من بين هذه الجوانب التي تحدثنا عنها في: مفهوم التصوف، ونشأته، وأصوله، وبعض مبادئه وغاياته، وآدابه في الإسلام، والتأثيرات الخارجية التي طرأت عليه، فأثرت فيه وجرت عليه بعض الأخطاء.

وقد لاحظنا في مقدمة ذلك البحث: أن الفكر الصوفي في غنى بعطائه الذي يمكن أن يجد فيه كل ذي تخصص ما يناسب تخصصه واهتمامه من المادة والأفكار. ويأتي في مقدمة من يمكنهم أن يجدوا في الفكر الصوفي موضوعات صالحة لدراستهم وأبحاثهم: المربون وعلماء النفس، وذلك

باعتبار الحركة الصوفية تربوية في المقام الأول، تهتم بصقل الروح وتهذيب النفس والوجدان وتقويم السلوك وتوجيه العمل، وفق مبادىء تربوية ونفسية معينة، ستظل على الدوام لها وجاهتها وقيمتها التي تستحق من أجلها الدراسة والبحث في كل عصر بما يناسب منطقه وأساليبه[1].

وإذا كنا في ذلك البحث قد اكتفينا بالتعريف بالنزعة الصوفية في الفكر الإسلامي الصوفي من الجوانب التي سبقت الإشارة إليها بصورة عامة، ولم نتعرض إلا عرضاً للمعاني والمبادىء التربوية في الفكر الصوفي الإسلامي، فإننا سنحاول في هذا الفصل وفي الذي يليه التركيز على إبراز الأصول الصوفية والمعاني والمبادىء والأساليب التربوية في الفكر الصوفي الإسلامي، من خلال دراستنا لشخصية علمية صوفية معينة، تعتبر من أبرز الشخصيات العلمية والصوفية التي برزت في الشق الغربي من وطننا العربي الإسلامي في العصور المتأخرة من تاريخه، والتي ارتبطت ببلادنا ليبيا وعاشت فيها الجزء الأخير من حياتها الذي كان أخصب فترات عمرها الغني بعطائه الفكري والروحي.

هذه الشخصية العلمية والصوفية الفذة التي اتخذناها موضوعاً لهذا الفصل، هي شخصية الفقيه والمحدث والصوفي الصالح: أحمد زروق الذي نعتبره من أبرز الشخصيات العلمية والصوفية في وطننا العربي والإسلامي التي استطاعت أن تستوعب علوم عصرها وتتمثلها وتسهم فيها بنصيب وافر شرحاً وتفسيراً وتعليقاً وإبداعاً، واستطاعت أن تبرز بصورة خاصة في علم التصوف وفي التربية الصوفية، وهو المجال الذي كان فيه معظم جهودها ومصنفاتها والذي التزمت عاداته وتعاليمه في حياتها العامة والخاصة.

وفي حديثنا عن زروق في هذا الفصل، سنهتم بصورة خاصة بحياته وأصول طريقته الصوفية، تاركين الحديث عن فلسفته وأفكاره ووسائله التربوية أو عن شخصيته كمربٍّ إلى البحث القادم.

---

(1) بحث قدمه الكاتب تحت عنوان: «النزعة الصوفية في المجتمع العربي الإسلامي»، إلى الندوة العالمية للحضارة العربية الإسلامية، بمدينة إشبيلية، بإسبانيا، من 20 حتى 23 مارس، 1980، 34 صفحة.

والنقاط التي سوف نتناولها بالشرح المبسط والنقاش الموجز، بالنسبة لزروق، في الصفحات التالية من هذا الفصل، هي النقاط التالية:

1 ـ حياة زروق.

2 ـ تعليم زروق وعوامل تكونه العلمي.

3 ـ نزعة زروق الصوفية وعوامل التأثير فيها.

4 ـ حياة عصره وانعكاساتها على حياته وفكره.

5 ـ مصنفاته وكتاباته.

6 ـ تأثيره على غيره.

7 ـ أصول الطريقة الزروقية.

هذه في النقاط الرئيسية التي سوف نوضحها ونناقشها بإيجاز في هذا الفصل، مع التطويل بعض الشيء في شرح ومناقشة النقطة الأخيرة، وهي المتعلقة بأصول الطريقة الزروقية، معتمدين في شرحنا ونقاشنا بقدر الإمكان على ما كتبه زروق نفسه وما كتب عنه من قبل القدماء والمحدثين.

1 ـ حياة زروق:

فالبنسبة للنقطة الأولى، نستطيع القول بأن موضوع فصلنا هذا هو أبو الفضل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، والمعروف بزروق. وقد أكد زروق نفسه هذا النسب في بداية قصيدته الطويلة التي نظمها في عيوب النفس والتي يقول في أولها:

يقول راجي رحمة الغفار أحمد نجل أحمد الحضاري

البرنسي الأصل ثم الفاسي المشتهر زروق بين الناس

ولد زروق في طالعة فاس الكبرى، وقال عبد الله كنون إن زروق ولد في قرية «تليوان» القريبة من وادي الحضار. وفي هذه القرية يوجد قبر والد زروق وحوله مسجد ومكان لسكنى الإمام، وتعرف بزاوية سيدي أحمد زروق. ولكن الدكتور علي خشيم لم يمل إلى قبول ما ذكره الشيخ عبد الله

كنون معتمداً في رفضه على سيرة زروق التي كتبها بنفسه وذكر فيها «أنه هو ووالده بل وجده ولدوا جميعاً وشبوا في فاس»[2].

وكانت ولادة زروق في الثاني والعشرين من شهر المحرم، سنة ست وأربعين وثمانمائة من الهجرة النبوية الشريفة الموافق للسابع من شهر يونية سنة 1442 ميلادية.

وقد توفيت والدته في اليوم الثالث من ولادته، وقد توفي والده بعد ذلك بثلاثة أيام، أي في اليوم السادس من ولادته عن اثنين وثلاثين سنة. وكان جده من جهة والده قد توفي قبل ولادته بستة أيام عن ثلاث وخمسين سنة. ويبدو أن هذا الموت المتلاحق لأفراد أسرة زروق كان بسبب طاعون أصاب مدينة فاس في عام ولادته وعرف بوباء عزونه.

وقد سماه والده عند ولادته محمداً، ولكنه ما لبث أن عرف باسم أبيه أحمد بعد وفاة أبيه. يقول زروق في الكناش: «وكان الوالد قد سماني محمداً. فلما توفي نقلوني لاسمه «أحمد»، فجمع الله لي بين الاسمين الشريفين. واخترت «أحمد» لثلاثة أوجه:

أحدها: لألفي له وجريانه على لسان جدتي التي كنت أسكن إليها، لأنها كانت أرفق بي، مع أنها عالمة صالحة.

الثاني: قوى ذلك بأنه لم يتغير في ألسنة العامة، بل هو باق على أصل الوضع، بخلاف الآخر فإن العامة غيرت حركاته. ولو أن رجلاً تمسك بوضعه الأول لكفروه وأنكروه. والأسماء معتبرة باللفظ، لقوله عليه السلام: «إن الله صرف عني أذى قريش وسبهم، يسبون مذمماً»، وأنا محمد.

الثالث: أنه الاسم الذي وقعت به بشرى عيسى عليه السلام، ولم يتسم به أحد قبله عليه السلام»[3].

---

(2) علي فهمي خشيم، أحمد زروق والزروقية. ليبيا: مكتبة الفكر، 1975، ص 21 ـ 25.

(3) الكناش: صور من الذكريات الأولى لأحمد زروق. (تقديم وتحقيق: علي فهمي خشيم) نشر في: مجلة كلية التربية، بجامعة الفاتح، العدد الخامس، 1976، ص 69 ـ 114.

وكانت وصية والده أن ترعاه أمه (أي جدة زروق لأبيه)، ولكن الطفل تربى في حجر جدته لأمه، وهي الفقيهة الصالحة فاطمة المكناة بأم الخير وأم البنين. وكانت على جانب كبير من العلم والثقافة الدينية والصوفية وصلاح الدين والحال، فأثرت بعلمها وثقافتها الدينية وصلاح حالها وحكمة تدبيرها وتصرفها في نشأة حفيدها وفي نزعته الصوفية والدينية التي صاحبته منذ نشأته الأولى واستمرت معه طيلة حياته.

2 ـ تعليم زروق وعوامل تكوينه العلمي

وقد لجأت هذه الجدة الصالحة إلى تعليم حفيدها مبادىء العقيدة والعبادات في سن مبكرة من عمره وكانت تأمره بالصلاة وهو ابن خمس سنين، فكان يصلي منذ هذه السن المبكرة من عمره. وقد تعودت أن تعيد على مسمعه حكايات الصالحين وأهل التوكل، وغير ذلك من مقومات الإيمان. وما كانت تحدثه «في موضع الخرافات إلا بمعجزاته ﷺ وغزواته، وغرائب الكرامات، والمنقطعين إلى الله تعالى».

وقد أدخلته جدته في الخامسة من عمره الكتاب لحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادىء اللغة والدين. وكان من بين الوقائع التي يحكيها زروق في «الكناش» حياة طفولته قوله: «لما دخلت المكتب كتب لي الفقيه «ألم نشرح» في كفي الأيمن بالعسل ولعقته، فكنت أحفظ الصبيان واهتديت إلى المكتب، فما هربت منه قط، ولا علمت أنني لم أحفظ لوحي قط إلا يوماً واحداً»[4].

وقد أظهر زروق في هذه السن المبكرة من عمره ذكاءً نادراً وحافظة قوية، حيث إنه استطاع أن يحفظ القرآن الكريم، وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره.

وكانت جدته تدعم ما كان يتلقاه في الكتاب من تعليم ديني وتربية روحية بما كانت تزوده به من نصائح وتوجيهات، وبما كانت تهيئه له من مواقف تربوية عملية تفيد في تهذيب السلوك وتنمية الضمير الديني وغرس

(4) نفس المرجع السابق، ونفس الصفحات.

روح التقوى والزهد وحسن التوكل على الله في نفسه. فمن ذلك ما يحكيه زروق نفسه أيضاً عن ذكريات صباه مع جدته الصالحة في «الكناش» بقوله: «فكانت تعلمني التوحيد والتوكل والإيمان والديانة بطريقة عجيبة. وذلك أنها كانت في بعض الأيام تهيىء لي طعاماً، فإذا جئت من الكتاب للفطور تقول: «ما عندي شيء. ولكن الرزق في خزائن المولى عز وجل. فاجلس نطلب الله». فتمد يديها، وأمد يدي إلى السماء داعيين ساعة. ثم تقول: انظر! لعل الله جعل في أركان البيت شيئاً، فإن الرزق خفي». فنقوم نفتش ـ أنا وهي ـ فإذا عثرت على ذلك الطعام يعظم فرحي به، وباللّه الذي فتح به. فتقول: تعال نشكر الله قبل أن نأكله، لأجل أن يزيدنا مولانا. «فنمد أيدينا، ونأخذ في الحمد والشكر للّه ساعة. ثم نتناوله، ونفعل ذلك المرة بعد المرة، ولم تزل كذلك حتى عقلت».

ولما ناهزت الاحتلام كانت تهيء لي كل يوم درهماً. إذا قمت في الصباح أمد عيني، وإذا بدرهم مطروح على الوسادة، فتقول: «صلِ الصبح، وتعال خذه». وتقول: «هذا الدرهم يعينه على الصلاة ويمنعه من الفساد، ويقيه التشوف للناس في الشهوات».

وكانت تدربني على نقد الكتب وتحذرني الشعر، وتقول لي: «من يترك العلم ويشتغل بالشعر كمن يبدل القمح بالشعير». وكانت تقول: «لا بد من تعلم القراءة للدين والصناعة للمعاش».

«وكانوا يسلمونني لتعلم الصناعة في الخميس، والجمعة، والاثنين إن خرجت من المكتب»[5].

وكانت الصناعة التي تعلمها زروق ليكسب بها قوته هي صناعة الخرازة، فكان زروق يتردد إلى أحد الإسكافيين في مدينة فاس ليتعلم منه الخرازة.

وبعد حفظ زروق للقرآن الكريم وأخذه فترة من الزمن قضاها في العمل من أجل كسب عيشه الذي أصبح مضطراً إليها بعد وفاة جدته أم البنين،

(5) نفس المرجع السابق، ونفس الصفحات.

استأنف دراسته العلمية «وانتظم في سلك طلبة جامع القرويين والمدرسة العنانية، وصار يتردد عليهما لدراسة أمهات كتب المذهب المالكي والحديث والأصول وقواعد اللغة العربية. ومن المرجح أنه درس بعضاً من كتب التصوف، كذلك في هذه الفترة المبكرة من عمره، وهو أمر متوقع في ذلك الجو الفكري والديني في فاس، وتتلمذ على أشهر علمائها وفقهائها آنذاك، وما حولها من البلاد، والتقى برجالها الذين أعانوه في دراسته لكتب اللغة والدين. وكان زروق فخوراً بهؤلاء الأساتذة المشهورين فسجلهم في كناشة» وفي غيره من كتبه[6].

وكان من بين العلماء الذين تعرف عليهم زروق قبل رحلته إلى المشرق فأخذ عنهم العلم أو تأثر بهم في سلوكهم الصوفي، هم: خال جدته الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن محمد القشتالي، وأبو محمد عبد الله بن محمد ابن موسى العبدوسي، وأبو العباس أحمد بن العجل الوزروالي، وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن الأنفاسي، وأبو عبد الله محمد المعروف بابن ملال، وأبو الحسن بن منديل المغيلي الذي كان إماماً بالمدرسة العنانية، والأمين أبو عبد الله محمد المعروف بالعطار الذي كان من أصحاب زوج خالة زروق، وأبو عبد بن زمام، ومحمد بن علي السبطي، وعبد الله الفخار، وأبو عبد الله المشذالي، وعبد الرحمن الثعالبي، وأبو فارس عبد العزيز الورياغلي، وعبد الله بن محمد بن قاسم القوري، ومحمد الزيتوني، وغيرهم.

وقد استفاد زروق من هؤلاء جميعاً بشكل أو بآخر علماً وخلقاً ونفحة من نفحات التصوف الحق والفتح الرباني، وكان من أشدهم تأثيراً عليه هما الأستاذان الأخيران في القائمة السابقة: عبد الله القوري، ومحمد الزيتوني. فالأول كان فقيهاً ذائع الصيت وأستاذاً في القرويين تتلمذ عليه زروق وتوثقت الصلة بينهما، حتى أصبح يتردد عليه في بيته ويناقشه في كل ما يعن له من مسائل العلم. ولم يكن الشيخ القوري يخلو من نزعة صوفية، كما هي الحال

(6) علي فهمي خشيم، أحمد زروق والزروقية. ص 27 . 28.

بالنسبة لغالب علماء عصره. وأما الشيخ الزيتوني فكان صوفياً في المقام الأول، يتبع الطريقة القادرية أو الشاذلية. وكان ذا شخصية قوية وقع تحت تأثيره زروق في بداية شبابه وأصبح من الملازمين له ورافقه في إحدى زياراته لضريح الولي الصالح عبد الرحمن أبي يعزا مع جماعة من مريدي الشيخ الزيتوني. وقد ظهر لهم في هذه الزيارة ـ كما يقول زروق نفسه في كناشه ـ من الأسرار والأنوار والبركات ما لا مزيد عليه.

ولم يصل زروق السابعة والعشرين من عمره حتى استطاع أن يكون نفسه علمياً كأبرز علماء وفقهاء عصره، مع اتجاه واضح له نحو التصوف روحاً وعملاً، حتى أصبح هذا الاتجاه الصوفي هو الغالب عليه في النصف الثاني من عمره.

ولم يكتف زروق بما كان متوفراً له في بلاده المغرب من فرص الدراسة وطلب العلم وفرص التوجيه الروحي أو الصوفي، بل أصبحت نفسه تتوق إلى مزيد من العلم والتوجيه الروحي والاتصال الشخصي في الشق الشرقي من وطنه العربي والإسلامي. لذا قرر القيام برحلته الأولى إلى المشرق في عام 873 هـ (1468 م)، لتأدية فريضة الحج أولاً، ولطلب مزيد من العلم والتعرف على بعض علماء المشرق والاستفادة منهم والتعرض لمزيد من النفحات الروحية ثانياً.

وقد مر زروق في طريقه إلى مكة بتونس، وليبيا، ومصر. وقد استقر في مدن هذه الأقطار جميعاً فترات زمنية تكفي للاتصال بعلمائها ومشايخها للأخذ عنهم والاستفادة من علمهم وإفادتهم أيضاً، لأن طلب العلم أخذ وعطاء. وكان من بين من أخذ عنهم في تونس محمد بن قاسم الرصاع، وفي ليبيا أحمد بن عبد الرحمن الزليتني، والمعروف بحلولو، وعلي الخروبي، وهما من كبار علماء المذهب المالكي في عصرهما. وهذا ما فعله أيضاً بالنسبة لمصر والحجاز، حيث بقي في مصر وفي القاهرة بالذات وهو في طريقه إلى مكة وبعد الرجوع منها ما يقرب من عامين، وبقي في المدينة المنورة مجاوراً لمدة سنة تقريباً، التقى خلالها ببعض علمائها وببعض مشايخ الصوفية فيها.

وفي القاهرة بالذات التي بقي فيها، وهو في طريق ذهابه وفي طريق عودته من تأدية فريضة الحج، أطول مدة في هذه الرحلة، اتصل بالعديد من علمائها ودرس على كثير منهم، فاستفاد منهم وتأثر بهم في تكوينه العلمي وفي نزعته الصوفية. وكان من بين هؤلاء العلماء الذين اتصل بهم ودرس عليهم في القاهرة: نور الدين التنسي (ت 874 هـ)، ونور الدين السنهوري (ت 889 هـ)، وشمس الدين الجوجري (ت 896 هـ)، والمحدث أحمد بن حجر، وإبراهيم الدميري (ت 923 هـ)، ومحمد السخاوي (ت 913 هـ)، وأحمد بن عقبة الحضرمي (895 هـ).

وكان من أكثر العلماء والمشايخ السابقين تأثيراً على زروق هما الفقيه المحدث محمد السخاوي الذي قرأ عليه زروق «بلوغ المرام» واستمرت صلته حتى بعد رجوعه إلى المغرب، وكان من بين المترجمين لزروق لأنه توفي بعده. وثاني هذين العالمين هو الفقيه الصوفي أحمد بن عقبة الحضرمي الذي كان قادرياً يمنياً هاجر من بلده واستوطن مصر. التقى به زروق في القاهرة عند عودته من الحجاز سنة (876 هـ/ 1471 م)، وبقي معه قرابة ثمانية أشهر مستهدياً بنصائحه ومستشيراً إياه في كل كبيرة وصغيرة من أمره، حتى أصبح ينظر إليه على أنه زعيمه الروحي الوحيد. وقد استمرت هذه الصلة الروحية القوية بينهما حتى بعد رجوع زروق إلى المغرب تغذيها الرسائل المتبادلة بينهما والتي ظل الحضرمي يتعهد فيها زروق بخالص توجيهاته إلى أن توفاه الله عام 895 هـ.

وقد تكررت رحلة زروق إلى مكة المكرمة أكثر من مرة واحدة. وكان في كل مرة يلتقي بعلماء ومشايخ عصره في المناطق التي يمر بها، فيستفيد ويفيد.

وقد استقر به المقام في آخر حياته بمدينة مصراته، بليبيا، بعد أن ضاقت به سبل الحياة في بلاده ومل الحياة في فاس، وضجت نفسه من القاهرة، وأصبحت رغبته أن يجد المكان الذي يتوفر فيه الهدوء والسكينة والجو المناسب للخلوة والعبادة. وقد وجد زروق ضالته المنشودة في مدينة مصراته التي جاءها خلال عام (886 هـ/ 1481 م) ثم بقي فيها حتى وفاته 899 هـ/

1493م، لم يغادرها سوى مرتين، كانت أولاهما إلى الجزائر في سنة 891 هـ أو 892 هـ، وكانت ثانيتهما لتأدية فريضة الحج للمرة الثالثة والأخيرة في سنة 894 هـ/ 1489 م[7].

3 ـ نزعة زروق الصوفية وعوامل التأثير فيها:

ونتيجة لتلك التربية الدينية التي رباها زروق في طفولته، ولما كانت تغذيه به جدته المرأة الفقيهة الطيبة الصالحة في تلك المرحلة من إيمان قوي بالله وتوكل عليه واستقامة على دينه، ولما كانت تقصه عليه هذه الجدة الصالحة من حكايات الصالحين وكراماتهم ومعجزات النبي ﷺ، وللاستعداد الشخصي الطيب والصفاء الروحي الذي كان يتمتع به زروق بحكم فطرته ووراثته ومعدنه الطيب، ولروح التمسك بالدين والتقاليد الصوفية التي كان يتمتع بها أفراد أسرة زروق والمتصلون بتربيته الأولى، ابتداء من جده أبي والده الذي توفي قبل مولده، إلى والده الذي توفي في اليوم السادس من ولادته، كما قدمنا، والذي كان من أهل الولاية والصلاح، إلى جدته من ناحية أمه التي ربته على التقوى والصلاح، إلى زوج خالته الرجل الصالح الذي أصر أن ينفق على مرضعته طيلة مدة رضاعه، إلى خال جدته الفقيه الصالح أبي العباس أحمد بن محمد القشتالي الذي ظل زروق يحفظ له نصائحه المفيدة التي من بينها نهيه له عن الجلوس عند المحدث الذي يتكلم في الأسواق طول حياته، إلى زوج جدته الفقيه أبي العباس أحمد بن العجل الوزروالي الذي كان من بين نصائحه التي ظل زروق يحفظها له طول حياته نهيه له عن سبق الأضياف إلى القصعة، إلى الشيخ الصالح السلوي المعروف بنور الله والذي حنك زروق عند ولادته وكانت تقرأ عليه القرآن جدته مع أبيه، إلى عبد الله العبدوسي الذي حمل إليه زروق وهو لا يزال رضيعاً ثم لم يزل زروق يتردد إليه في تلك السن المبكرة في حياته لأن جدته كانت تقرأ مع أختيه الفقيهتين الصالحتين فاطمة وأم هانىء، إلى الشيخ الصالح الأمين أبي عبد الله محمد

(7) ينظر المرجع السابق، 28 ـ 63.

المعروف بالعطار الذي كان من أصحاب زوج خالة زروق ومن أصحاب شيخه أيضاً أبي عبد الله بن زمام والذي كانت له كراماته التي حدثه عنها شيخه ابن زمام وعاين بعضها بنفسه كالتي وقعت مع زوج خالة زروق في قصة الجار الذي جار عليه في حائط ادعى سقوطه وأخذ بذلك شبراً من أرضه، إلى غير ذلك من الأشخاص الصالحين الذين كانت لزروق فرصة الاحتكاك بهم في أطوار حياته الأولى وكان لهم بالغ التأثير ـ مع استعداده الفطري ـ في تكوين اتجاهه الصوفي، وفي حبه للأولياء والصالحين ولسماع سيرهم وحكاياتهم وكراماتهم، وفي وجود المتعة في رفقتهم وزيارة أضرحتهم.

وقد أخذ هذا الاتجاه الصوفي لدى زروق ينمو مع الأيام يغذيه الاستعداد الشخصي المناسب لذلك، والوسط الذي تربى فيه زروق والذي كان مليئاً بتوقعات السلوك الصالح منه، والتزامه بأوامر الدين ونواهيه وسلوكه طريق التقوى منذ صباه، واضطراب الحياة السياسية وكثرة الفتن وسوء أحوال المسلمين داخل بلاده وخارجها التي كانت دافعة له للهروب من واقعه المؤلم واللجوء إلى ربه وإلى حياة التصوف التي وجد فيها الأمن والسلام، والصحبة الصالحة التي حظي بها زروق، واتساع أفقه العلمي الذي لم يقف عند حدود علوم الفقه وأصول الفقه والحديث والتفسير وعلوم اللغة وغيرها من علوم عصره بل تعداها إلى علوم التصوف وقراءة أمهات كتب التصوف من أمثال إحياء علوم الدين للغزالي، ورسالة القشيري ومؤلفات ابن عطاء الله السكندري التي من بينها:

الحكم والتنوير ولطائف المنن ومفتاح الفلاح، وكتب الحارث المحاسبي، ومؤلفات ابن أبي جمرة، ومصنفات ابن الحاج التي من بينها المدخل، وكتب شهاب الدين أبي حفص عمر السهروردي التي من بينها عوارف المعارف، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، وما إلى ذلك.

يضاف إلى هذه العوامل التوجيه الصالح الذي كان يلقاه من أساتذته ومشايخه، سواء في المغرب أو في المشرق. ويأتي في مقدمة هؤلاء المشايخ الشيخ أبو عبد الله القوري والشيخ محمد بن عبد الله الزيتوني في المغرب،

والشيخ محمد السخاوي والشيخ أحمد الحضرمي في المشرق. وللزيتوني والحضرمي بالذات تأثيرهما البالغ في توجهه الصوفي، وكانت له مع الشيخ مراسلات عديدة تحمل في طياتها توجيهاً ومناقشات لأمور صوفية، لا يزال بعضها باقياً إلى الآن. وقد أورد بعضها الدكتور علي فهمي خشيم في بحثه القيم السالف الذكر عن أحمد زروق والزروقية. كما يمكن إيضاف إلى تلك العوامل أيضاً الخبرات الشخصية التي كان لها تأثيرها على وجدانه الداخلي والتي كان يحس بها أثناء زياراته لأضرحة الأولياء وأثناء خلواته للتعبد والذكر. ومن هذه الزيارات التي تحدث عنها زروق نفسه، هي زياراته لقبر الولي الصالح عبد الرحمن أبي يعزى يلنور (ت 572 هـ/ 1176 م) مع شيخه محمد بن عبد الله الزيتوني، وزيارته لضريح أبي مدين شعيب بن الحسين المتوفي بتلمسان (596 هـ/ 8911 م)، وهي الزيارة التي استغرقت رحلتها أربعين يوماً وكانت مليئة بالملابسات والأحداث على النحو المذكور في الكناش السالف ذكره. ومما قاله زروق عن زيارته الأولى في كناشه: «ولما كان آخر سنة سبعين زرنا الشيخ أبا يعزى، مع الشيخ الزيتوني وجماعة من الفقراء، فظهر لنا من أسراره وأنواره وبركاته ما لا مزيد عليه».

وكتابات زروق التي سنشير إلى بعضها في فقرة لاحقة من هذا الفصل تفيد أن زروق استطاع أن يحقق نضجاً في اتجاهه الصوفي وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره، كما تفيد أنه كان على دراية واسعة بالاتجاهات والتيارات والطرق الصوفية، سواء المقبول أو المرفوض منها من وجهة نظر الكتاب والسنة اللذين يقيس بهما مدى صلاحية أي اتجاه صوفي أو طريقة صوفية.

ومن الطرق الصوفية المقبولة التي كان زروق على دراية تامة بها والتي كانت لها انعكاساتها على طريقته الزروقية، هي الطرق التالية:

أ ـ الطريقة الجنيدية المنسوبة إلى أبي القاسم الجنيد والتي ترتكز على كمال متابعة السنة المحمدية، ومراقبة الباطن، واختيار الصحو وترجيحه على السكر، ورياضة النفس على بساط الخلوة.

ب ـ الطريقة القادرية التي تنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني.

ج ـ والطريقة السهروردية المنسوبة إلى الشيخ شهاب الدين السهروردي.

د ـ والطريقة الشاذلية المنسوبة إلى الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الجبار الحسني المعروف بالشاذلي.

هـ ـ والطريقة الجزولية التي تعتبر فرعاً من فروع الطريقة الشاذلية والتي تنسب إلى أبي عبد الله محمد بن أبي بكر سليمان الجزولي الشريف الحسني، مؤلف «دلائل الخيرات في الصلاة على النبي ﷺ».

و ـ والطريقة العروسية التي تعتبر هي الأخرى فرعاً من فروع الشاذلية والتي أخذها الشيخ الزروق عن صاحبها أبي العباس أحمد بن عروس مباشرة، كما أخذها أيضاً عن شيخه أبي العباس أحمد بن عقبة الحضرمي[8].

إلى غير ذلك من الطرق الصوفية المرضيّ عنها التي كانت معروفة في وقت زروق، والتي كان زروق بكل تأكيد ملماً بأصولها وقواعدها، وكان كثيراً ما يستدل بأقوال أقطابها.

وكتابات الزروق كما تنبىء عن أنه كان على دراية تامة بالطرق الصوفية المقبولة والمرفوضة شرعاً، السابقة عليه والمعاصرة له، كما أنه على اطلاع بما حوته كتب التصوف المشهورة التي سبقت الإشارة إلى بعضها، فإنها تنبىء أيضاً عن أنه كان على دراية واسعة بالأحاديث النبوية المطهرة وآثار السلف الصالح وأقوالهم المدعمة لأصول وقواعد طريقته الصوفية. فالشواهد التي يستدل بها ويدعم بها آراءه ووجهات نظره تشمل ما لا يحصى من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال وممارسات السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى جيل الصالحين من معاصريه. والأشخاص الصالحون الذين استدل زروق بآرائهم وأقوالهم وممارساتهم الصائبة يصعب حصرهم في مثل هذا الفصل الموجز، ولكنهم يشملون على أي حال كثيراً من الأسماء اللامعة التي كان لأصحابها الفضل في تأصيل التصوف الإسلامي، وذلك من أمثال: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي، وأويس القرني، وعمر بن عبد العزيز،

(8) ينظر: المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق. بيروت، 1968، ص 51 ـ 107.

والحسن البصري، ومقاتل بن سليمان، وأبي حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والحارث المحاسبي، وأبي القاسم الجنيد، والهروي الأنصاري، والإمام الغزالي، وأبي القاسم القشيري، وعبد القادر الجيلاني، وأبي مدين شعيب، وأبي يزيد عبد الرحمن الزيات، وابن عطاء الله السكندري، وعبد السلام بن مشيش، وأبي الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسي، وإبراهيم بن أدهم، ومالك بن دينار، والفضيل بن عياض، وإبراهيم ابن يزيد النخعي، ومعروف فيروز الكرخي، وسفيان بن عيينة، وأبي بكر محمد الشبلي، وداود الطائي، وأبي يزيد البسطامي، وحبيب العجمي، وحسن التستري، ومحمد المرجاني، وأبي علي الثقفي، وأبي إسحاق الشاطبي، وابن خلدون، وأحمد الحضرمي، وعشرات غيرهم ممن وردت إشارات إلى أقوالهم وأفعالهم في كتابات زروق المختلفة في مجال التصوف. الأمر الذي يدل على سعة اطلاع زروق في مجال التصوف وعلى قدرته النادرة على الاستفادة من جهود جميع الذين سبقوه في بلورة وجهة نظره الصوفية وبناء طريقته السلفية السنية المتميزة التي هي فرع وامتداد للطريقة الشاذلية التي هي بدورها امتداد للطريقة المدينية والطريقة الرفاعية والطريقة القادرية. ثم إن الطريقة الشاذلية تتصل بالسيدين الشريفين الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، كما سيأتي لنا بيان ذلك.

واطلاع زروق الواسع ـ كما تعكسه كتبه ورسائله ـ لم يقف عند ما كتبه الفقهاء والمحدثون والمفسرون والمتصوفة الذين يتفق مع أفكارهم، بل كان يتعدى ذلك إلى ما كتبه من يعارضهم كلياً أو جزئياً في أفكارهم من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء والمتصوفة من أمثال الفارابي، وابن سينا، وابن ماجه، وابن الطفيل، ومتكلمة المعتزلة والمجسمة، وابن تيمية والحلاج، ومحيي الدين بن عربي، والسهروردي المقتول، وابن الفارض، وأبي محمد عبد الحق ابن سبعين، وغيرهم.

ولكن حتى بالنسبة لهؤلاء الذين يخالفهم في وجهة نظرهم التي تتفق مع وجهة نظره السلفية السنية، وذلك مثل قولهم بنظرية الفيض وبالعقل الفعال وما يترتب عليه من القول بقدم العالم، ومثل قولهم بالظهور والحلول ووحدة

الوجود، وما إلى ذلك، فإنه يمثل معهم موقف المتسامح، ولا يتسرع في تكفيرهم، ويحاول أن يجد لهم مخرجاً مما تورطوا فيه. فهو يقول ـ مثلاً ـ في شرحه لما جاء في عقيدة الإمام الغزالي من أنه تعالى: «ليس في ذاته سواه ولا في سواه ذاته»: «يعني لا على معنى الحلول والاتحاد، ولا على معنى الظرفية والاتصال. وأشار رحمه الله بهذا النفي إلى مذهب الحلولية (الحوليين) القائلين بالاتحاد والواحدة من النصارى وغيرهم. وقال الشيخ الفقيه أبو حيان رحمه الله في كتابه: «النهر من البحر» عند تفسير قوله تعالى: **«وقالت النصارى المسيح ابن الله»**: «ومن بعض اعتقادات النصارى استنبط من تستر بالإسلام ظاهراً وانتمى إلى الصوفية حلول الله تعالى في الصور الجميلة، ومن ذهب من ملاحدتهم إلى الاتحاد والوحدة كفلان وفلان، وذكر جماعة من المتصوفة قدماء ومتأخرين. ثم قال: وإنما سردت ذلك نصحاً لدين الله تعالى...، وشفقة على ضعفاء المسلمين، وليحذروا. فهم أشد من الفلاسفة الذين يكذبون الله تعالى ورسوله ﷺ، ويقولون بقدم العالم ويكذبون بالبعث. وقد أولع من انتمى إلى الصوفية بتعظيم هؤلاء، وأنهم صفوة الله تعالى وأولياؤه». قلت: لما ورد عنهم من الأعمال الصالحات وخوارق العادات وجميل الاعتقادات الذي ينفي اعتقادهم لظاهر ما ذكر عنهم، فيلزم تأويله عليهم، بما يرده إلى الحق، مع التبري من تكفير مسلم بما الظاهر براءته منه، إن احتمله كلامه: نعم يجب حسن الظن الذي لا يؤدي إلى الاغترار، والحذر الذي لا يؤدي إلى سوء الظن. وقد قال الشيخ أبو بكر فورك رحمه الله تعالى: «الغلط في إدخال ألف كافر بشبهة إسلام، ولا الغلط في إخراج مسلم واحد بشبهة كفر». كذا نقله عياض رحمه الله في الشفاء. وقد عرف من مذهب الصوفية تقديم حسن الظن أبداً رضي الله عنهم، وذلك غير دافع لما في نفس الأمر ولا موجب لانقلاب الحق باطلاً. وكان الأهم لي أن يحكم على الكلام بأنه صحيح أو فاسد، ويترك القائل بينه وبين ربه تعالى، ما لم يتعين حق شرعي فيجب القيام به، أو يخشى على مسلم فيتعين التحذير بحسب قوله»[9].

(9) أحمد زروق، شرح عقيدة الإمام الغزالي. (مخطوطة)، ص 11، 12.

ويتجلى هذا الموقف المتسامح من زروق مرة أخرى مع ابن سبعين الذي يختلف معه زروق في كثير من أفكاره الصوفية ويعارض ما تضمنه حزبه وأذكاره من ألفاظ مبهمة موهمة، وذلك على خلاف ما عليه الأحزاب المقبولة شرعاً كأحزاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي. يقول زروق في شرحه لحزب البحر للشيخ أبي الحسن الشاذلي بشأن مؤلف هذه الأحزاب: «ثم إن منهم من أجرى مجرى الجمع والتفصيل بجميع الأحاديث المروية في الصباح والمساء وطرق التقديس والتنزيه والثناء بالألفاظ الشرعية من غير زيادة، طلباً للسلامة، ووقوفاً مع الرسم في موقف الإرادة، وهو أسلم. ومنهم من جرى مجرى الإفادة مع ذلك وهو أتم وأحكم، لا سيما إن تجنب الموهم والمنبهم، وقصد في أذكاره وأدعيته لذكر الأهم، كالشيخ أبي الحسن رضي الله عنه. .

ومنهم من وقف فيه موقف المعارف والعلوم، ولم يبال بمبهم ولا موهم، كالشيخ أبي محمد عبد الحق إما ابن سبعين. إذ أتى بعبارات هاملة وأمور مشكلة متطاولة، أما اعتباراً بجريان حاله، وهو الظن، أو لأنه موضوع للخواص الذين لا يتوهمون به، والمتبادر، فيتعين اجتنابه على الضعيف بل القوي، من غير إنكار، مع ما أمكن من توجيه ذلك بوجه الحق وإقامة الحجج والأعذار. والحق أبلج والباطل لجلج، ومن عرف فليتبع، ومن جهل فليسلم. فإن كان الإنكار ليس بشيء، والاعتراض بغير حق ضلال على الجملة والتفصيل. فإن قلت: قد تكلم بعض الناس في ابن سبعين كلاماً فاحشاً بوجه يوجب عدم اعتباره، فكيف يلتفت إلى علومه وأدعيته وأذكاره؟! قلنا: لا يقبل قول إلا ببرهان، ولا يؤخذ شيء إلا بتبيان. وقد ثبت كونه من أهل العلم، ونقل كونه من أصحاب الحقائق والأحوال. بل حقق ذلك جملة من أتى بعده من الرجال، فلا يلتفت إلى إنكار المنكر في إسقاط مرتبته، ولا يؤخذ من كلامه إلا ما كان واضحاً في رتبته، وكذا ما كان من غيره على طريقته. فإن كان للعلم حرمته فللعلماء أيضاً حرمة. والمؤمن يلتمس المعاذير، والمنافق يتبع العيوب، بل يحدثها بغير حق، والأجهل منه متعصب بالباطل ومنكر لما به هو جاهل. واعلم أن الكلام صفة المتكلم، وما فيك ظهر على فيك.

والمبادرة بالإنكار كالمبادرة بالاعتراض. وأولى الناس بالحق من وقف إلى بيان التحقيق، وتوقف في مواقف الضرر والضيق، وإذا كان توقفه للاسترشاد، لا مخالة للمراد، وبالله التوفيق»[10].

وهكذا يمكن للباحث أن يجد في كتابات زروق العديد من النصوص التي تدل على تسامحه مع القائلين بما يخالف ظاهر الدين وتفويض أمرهم إلى الله، مع مخالفته لهم في مقولاتهم واعتبارها من البدع التي ينبغي للمريد أن يتجنبها.

4 ـ حياة عصر زروق وانعكاساتها على حياته وفكره:

إن كتابات زروق كما تعكس سعة اطلاعه وعلمه ودرايته التامة بالاتجاهات والطرق الصوفية التي كانت سائدة في عصره وتسامحه مع من يخالفهم في وجهات نظرهم، فإنها تعكس أيضاً حياة عصره والواقع السياسي والاجتماعي والثقافي الذي كان يعيش فيه وما كان يجري في ذلك العصر وفي هذا الواقع من نزعات وتيارات صوفية وفكرية وسياسية واجتماعية ومن ممارسات وعادات وتقاليد دينية واجتماعية، ومن منازعات واضطرابات سياسية.

فمن الناحية السياسية نجد كتب زروق، وبخاصة كناشة تشير إلى اضطراب الأوضاع الداخلية واستحكام الخلافات والمنافسات السياسية بين من هم في رأس الحكم في بلاده. ولم يكن الخلاف بين عبد الحق بن أبي سعيد الزناتي المريني آخر سلاطين الدولة المرينية في المغرب وبين وزرائه وحجابه من بني وطاس الذي انتهى بسقوط عبد الحق وبسقوط الدولة المرينية معه إلا أحد مظاهر الاضطراب السياسي الداخلي.

ولم تكن الحالة الخارجية للعالم الإسلامي بأفضل منها في داخل البلاد، حيث كانت بلاد الإسلام منقسمة إلى دويلات صغيرة متناحرة. وكان للمغرب

---

(10) أحمد زروق، كتاب مفاتيح العز والنصر في التنبيه على بعض ما يتعلق بحزب البحر للشيخ أبي الحسن الشاذلي (مخطوط)، ص 2 ـ 4.

نصيبه في هذا الانقسام وهذا التناحر، مما جعل دويلاته تقف عاجزة عن مد يد العون لأبناء عمومتهم في الأندلس التي كانت تسقط قطعة بعد أخرى في أيدي الإسبان حتى أخرج العرب منها نهائياً بسقوط غرناطة آخر معقل عبد الله بن الأحمر في عام 897 هـ/ 1491 م، كما وقفت عاجزة عن صد هجمات البرتغاليين الذين لم يكتفوا بإخراج العرب من بلادهم، بل أخذوا يهاجمونهم في عقر دارهم حتى استطاعوا أن يستولوا على عدد من المدن الساحلية المغربية.

ولم تكن الحالة الاجتماعية والثقافية والدينية بأحسن من الحالة السياسية، حيث اختل الأمن وأصبح الإنسان لا يأمن على نفسه وماله كما تدل على ذلك المضايقات والتهديدات التي تعرض لها زروق في رحلته الداخلية لزيارة ضريح الشيخ أبي مدين، كما فسدت الذمم وانتشر الجهل وقل طالبو العلم وكثر أدعياؤه وقل العاملون به وغلبت على كتبه اللفظية والتقليد والنقل غير الواعي، وانتشر الحقد والحسد حتى بين العلماء أنفسهم، وانحرف التصوف عن مساره الأصلي السليم، وانتشرت البدع الضالة والدعاوى والطرق الصوفية المنحرفة التي خصص زروق قدراً كبيراً من كتاباته للرد عليها ولفضحها وبيان أخطائها، كما يتضح من النصوص القليلة التي سننقلها بعد قليل من بعض كتبه.

ولهذه الأسباب وغيرها أخذت نفس زروق تضيق بالحياة ببلده فاس ويزيد ضيقه منها كلما تقدمت به السن، وكثرت خلافاته مع فقهاء ومتصوفة عصره حتى أصبحت الحياة في فاس بالنسبة إليه في نهاية الأمر غير محتملة، مما جعله يقرر الهجرة عنها والبحث عن مستقر جديد له يجد فيه الأمان والطمأنينة والتفرغ لعبادة ربه وخدمة العلم النافع والدعوة إلى طريقته السمحاء والمستمدة من الكتاب والسنة. وانتهى به المطاف في آخر الأمر إلى مدينة مصراته، بليبيا التي وجد فيها ضالته المنشودة وبقي فيها حتى وفاته بها على نحو ما قدمنا في فقرة سابقة من هذا البحث[11].

(11) ينظر الكناش، وعلي فهمي خشيم، أحمد زروق والزروقية. ص 9 ـ 64.

وما ذكره زروق في كتبه حول اضطراب الحياة في عصره وفساد الذمم في عصره وضعف الهمم وانتشار الجهل وانتشار البدع وسوء الفهم للدين القويم والتصوف الصحيح أكثر من أن يتسع لذكره هذه الفقرة البسيطة من هذا الفصل. وعلى سبيل المثال يمكن أن نورد بعض النصوص من كتابان من كتب زروق التي انتقد فيها زروق حياة عصره والحركات الصوفية التي كانت منتشرة في زمانه، وهما: كتاب «عدة المريد»، وكتاب «الإعانة».

(أ) ففي «عدة المريد»: نجد زروق يتحدث في أحد المواقع منه عن أصول الطريقة الصوفية السليمة، ثم يقول معلقاً على ذلك: «هذه هي الأقوال التي من ضيعها حرم الوصول. وأكثر أهل الزمان على ذلك، إلا من عصم الله سبحانه وقليل ما هم. وقد قال ﷺ: «إن مما في صحف إبراهيم عليه السلام: وعلى العاقل أن يكون عارفاً بزمانه مقبلاً على شأنه ممسكاً للسانه...» (الحديث). فمعرفة الزمان وأهله صعب، والكلام فيه متسع رحب، وفيه من الآفات الدنيوية ما نسأل الله السلامة منه، ومن تحريك الآثار النفسانية ما نرغب في الخلو عنه، لا سيما ما يشتبه فيه الحق بالباطل ويظهر المتحلي به كالعاطل. فإن النفس تسرع لإنكاره، ولا يصح من المشفق على نفسه وجود إظهاره، لما يحرك من عقار التعصب والإذاية وما يوجبه من اشتداد الغواية، لكن الحق أبلج والباطل لجلج، والدين النصيحة، والسكوت في الحق فضيحة. فوجب أن نأتي من ذلك بما هو الأهم لشيوعه في الوقت، حماية لمن وقف عليه من أسباب البعد والمقت. فنذكر أموراً يدعي أهلها أنهم على طريقة السادة الصوفية، ويرون في ذلك أنهم على حالة سنية سنية، من غير دليل واضح قاطع ولا نور ظاهر ساطع.... وإنما هي طريقة معوجة وأمور ملبسة مروجة، يغتر بها الجاهل فيتبع، ويحتج بها المتعصب فيضل ويبتدع، أعاذنا الله مما ابتلاهم به، وسلك بنا طريق الحق بفضله»[12].

ثم أخذ زروق في هذا الكتاب يبين الأخطاء والانحرافات التي وقع فيها

---

(12) أحمد زروق، عدة المريد من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت. (مخطوطة)، ص 3.

بعض الطريق الصوفية السائدة في عصره. كان من بين هذه الأخطاء والانحرافات التي ذكرها: ترك أصحاب هذه الطرق لتلاوة القرآن الكريم ولطلب العلم مع تواتر الأدلة الحاثة على ذلك، وهجرهم للصلاة على النبي ﷺ، مع أن الله جل شأنه أمر بالصلاة عليه ووردت الأحاديث النبوية الكثيرة الحاثة على الصلاة عليه ﷺ، وهجرهم للأذكار الواردة شرعاً واستبدالها بأذكار من عندهم، واقتصارهم على الذكر الجماعي والجهر به مع أنه مرجوح السند. لقوله عليه السلام: «خير الذكر الخفي»، وتأخيرهم للقنوت في صلاة الصبح، ولجوءهم إلى اتباع الرخص من غير ضرورة كصلاة النافلة في جماعة كبيرة، وتركهم للمطلوب من الرخص كرخصة قصر الصلاة في السفر التي تعتبر من السنن المرغوبة، لقوله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه»، ولقوله عليه السلام أيضاً: «خيار أمتي الذين إذا أساؤوا استغفروا، وإذا سافروا أفطروا وقصروا». وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما: «صلاة السفر ركعتان، من خالف السنة كفر». يعني إن تحققت، وكان ذلك منه استحباباً لها. ومن هذه الأخطاء والانحرافات التي بينها زروق أيضاً في هذا الكتاب بالنسبة لأصحاب هذه الطرق: الانقياد الأعمى لمشايخ طرقهم، والمبالغة في تقديرهم والتكلف في استئذانهم، حتى إنهم كانوا يستأذنونهم في أخص شؤونهم الخاصة الداخلية، والادعاء الفارغ لبعض مشايخ هذه الطرق المنحرفة، حتى استفاض عن بعضهم أنه كان يقول لمريديه: «أضمن لكم ثلاثة مواقف: الخاتمة عند الموت، والثبات عند السؤال في القبر، والجواز على الصراط». ويعلق زروق على هذا الادعاء بالباطل بقوله: «وهذا شيء لا يقوله عاقل، لأن هذه المواقف لا يقدر أحد أن يملكها لنفسه، فكيف يصح ذلك لغيره؟! وإذا كان دعاء الرسول يومئذ: «رب سلم سلم» ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، كما صح. فكيف يجوز أن يفوه بهذا مسلم؟ نسأل الله العافية. بل قد بلغني عن بعض أتباعهم أنه قال: «أضمن ذلك بالعدالة». وهذا هو البلاء المبين. لكن الحرص على الاستتباع مع ادعاء المزية وعظم الجهل ومخاطبة الجهال بأمر غائب عن الأعيان لا يتبين كذبه يحمل على أكثر من هذا نسأل الله السلامة»[13]. ويستمر

(13) نفس المرجع السابق ص 33.

زروق في نقده لمتصوفة عصره وبيان بدعهم وانحرافاتهم عن جادة الدين القويم والتصوف الصحيح إلى أن يقول بعد صفحات مما تقدم في كتابه السالف الذكر:

«واعلم أن هذا الزمان كثر فيه المدعون وعدم ظهور المحققين، فلا تكاد تجد إلا مشغولاً بدنيا أو محجوباً بدعوى أو مفتوناً بهوى. فلزم الحذر على قدر ذلك، حتى لقد أفتى بعض فقهاء المغرب من المتقدم زمانهم بأن طريق الصوفية لا يجوز الدخول فيه في هذه الأزمنة أصلاً إلا القائم به على وجهه لا لعلة فيه. وسمعت شيخنا أبا العباس الحضرمي رضي الله عنه ارتفعت التربية بالاصطلاح في سنة أربع وعشرين وثمانمائة. ولم يبق إلا الإفادة أو الإنارة بالهمة والحال. وعليكم بالكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان. قلت: ثم بعد كلامه هذا تتبعت الطرق التي بأيدي الناس اصطلاحية، فلم أجد مع واحد منهم حقيقة ولا طريقة ولا ترسم إلا مجرد النسبة. يعرف ذلك من تأمله. . . . وحكمة ذلك أن النفوس لما كانت قبل هذا قريبة من الحق محجوبة عنه بالاصطلاحات أفاد فيها الاصطلاحات. فلما بعدت عنه لغلبة الفساد على الزمان وحجبت بالظلمات، لم يفد فيها ذلك لاختصاصها بتمام النور. وانتقل الأمر إلى الهمم والأحوال كما أن في الأمر الأول، حيث كانت كلمة الجاهلية غالبة على النفوس. فلم يفد فيها إلا ظهور نور النبوءة المذهب لكل ظلال وظلمة، دون اصطلاح ولا غيره. والأمر جار بالوراثة على نسبته فافهم وبالله التوفيق. ومما يتعين على طالب هذا الطريق الحذر من هفوات المنتسبين إليه قولاً وفعلاً. وقد قال الشيخ محيي الدين: احذر هذا الطريق فإن أكثر أهل الأهواء ينتسبون إليه، أو كلاماً هذا معناه، والقراء المداهنين، أو المتصوفة الجاهلين»[14].

ثم يستمر زروق في كتابه هذا في فضح وبيان الانحرافات والبدع التي وقع فيها متصوفة عصره، وفي محاولة رسم الطريق نحو تصوف سليم من هذه الانحرافات والبدع، يستمد أصوله وقواعده من الكتاب والسنة ومن آثار

(14) نفس المرجع السابق ص 43، 44.

وممارسات السلف الصالح المتفقة مع الكتاب والسنة، فليرجع إليه[15].

(ب) وفي كتاب الإعانة: تعرض زروق أيضاً لنقد أهل عصره وبيان سلبيات زمانه في عدة مواقع منه: نفي موقع من هذه المواقع تحدث زروق عن الصفات المرغوبة التي ينبغي أن يتحلى بها المريد الصالح، ولكنه استدرك في نهاية قوله، ليقول: «وإن هذا لعزيز في هذه الأزمنة، ولا سيما في حق بعض الناس وفي بعض الأمكنة، لكن منة الله لا تتقيد بالزمان ولا يمنعها وجود الدفع في المكان»[16].

ويقول في موقع آخر من هذا الكتاب، بصدد حديثه عن حاجة المريد إلى شيخ ناصح أمين «صاحب عمل وعلم صحيح، يقيمك مقام نفسه، ويعمل معك ما يجده في رمسه. فلا يألوك نصحاً إلا بذله، ولا توجهاً من التكميل إلا استعمله، وهو الآن معدوم في المشرق والمغرب. وإن وجد فأغرب من عنقاء مغرب، لأنك لا تجد إلا صاحب حال وهمة أو صاحب علم وعمل بلا همة»[17].

والمريد كما يحتاج في تربيته إلى شيخ صالح يأخذ بيده فإنه يحتاج أيضاً إلى أخ صالح معين بحاله وعمله. ولكن زروق بالرغم من إيمانه بأهمية مثل هذا الأخ فإنه يقرر ندرته في زمانه مثل ندرة المربي الصالح، ويقول في موقع ثالث من الكتاب السابق: «وهذا أيضاً أعز في الوجود من الغريب، وأبعد من البعيد، لفساد الزمان ووقوع المداهنة من الإخوان»[18].

ويقول في موقع رابع من الكتاب السابق: «واعلم أني خبرت الناس جملة وتفصيلاً، فلم أجد إلا رجلاً يريد أن يكمل بك دنياه، أو رجلاً يريد أن يستعين بك على هواه، أو ثالثاً يستأنس به فيما هو به من مناه. والكمال كله

---

(15) نفس المرجع السابق ص 94.

(16) أحمد زروق، إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين. (تقديم وتحقيق: علي فهمي خشيم. ليبيا وتونس: الدار العربية للكتاب، 1980، ص 36.

(17) نفس المرجع السابق، ص 79.

(18) نفس المرجع السابق، ص 80.

في علم بحق أو عمل بصدق أو حال بحقيقة، ولن تصل من كل منها إلا ما قسم لك..»[19].

ولكن بالرغم من الصورة المظلمة التي يعطيها زروق في بعض كتبه عن عصره وأهل عصره والتي نقلنا منذ قليل بعض ملامحها فإنه لم يكن فاقد للأمل كلية ولم يكن يعوزه العثور على بعض المشايخ والإخوان الصالحين الذين يأخذون بيده إلى طريق الخير والصلاح ويوجهونه إلى الطرق الصوفية الصالحة السائرة على هدى الكتاب والسنة وأثر السلف الصالح كالقادرية والمدينية والشاذلية والعروسية وغيرها، التي استطاع أن يسترشد بها في رسم طريقته الخاصة.

(19) نفس المرجع السابق، ص 94.